الفصل السابع

العناصر المعمارية وخصائصها

١ — استعمال الحجارة واستخدام الروافع.

٢ — العقود.

٣ — المحاريب.

٤ — القبوات والقباب والمقرنصات.

٥ — المآذن والمعاطف.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

العناصر المعمارية وخصائصها

١

استعمال الحجارة — استخدام الروافع

تطورت عمارة المساجد فى العصر الفاطمى تطورًا كبيرًا متشعبًا. وامتاز البناء فيها فيما امتاز به باستخدام الحجارة. وقد أخذ استخدام الآجر يقل تدريجيًا، ثم كاد يتلاشى فى نهاية ذلك العصر، ويعم استخدام الحجارة.

بدأ العصر باستخدام الآجر فى البناء كما رأينا فى الأسوار التى أقامها جوهر الصقلى، وفى بنائه للمسجد الجامع الأزهر. ثم اقتصر استخدام الآجر على بناء العقود والسقف والجوانب الداخلية للجدران والأجزاء العليا من المآذن. وقد رأينا أن خليطًا من الآجر والحجارة استخدم فى بناء أجزاء من مسجد الحاكم، هى جدرانه، ولكن مئذنتيه وبواباته بنيت من الحجارة. واستخدمت الحجارة بصورة ملحوظة فى المساجد الفاطمية الأخرى.

استخدمت الحجارة أول الأمر فى العصر الفاطمى بالخلط مع الآجر فى جدران مسجد الحاكم، ثم استخدمت فى معطفى مئذنتى هذا المسجد وفى مسجد الجيوشى من قطع غير منتظمة، كسيت بطلاء من الجص. واستخدمت فى مئذنة هذا المسجد الأخير عوارض خشبية، دفنت فى البناء بين صفوف الحجارة. تدعيما لها. واستمرت هذه الطريقة متبعة فى القاهرة أجيالاً طويلة.

وكانت الحجارة مستخدمة فى البناء من قبل فى مصر وفى بلاد المغرب. قبل الفتح الإسلامى، واستمر استخدامها فى بلاد المغرب بعد الفتح. ولهذا فإنه ليس غريبا أن تتخذ الحجارة وسيلة للبناء فى عهد الحاكم، بجوار استخدام الآجر. ولاشك فى أنه كانت لأعمال بدر الجمالى فى القاهرة، وبناء أسوارها الجديدة جميعًا من الحجارة، أثر كبير فى شيوع استخدام الحجارة بعد ذلك فى بناء المساجد. وترى فى جدران مسجد الصالح طلائع بدنات أعمدة مغمورة فى البناء الحجرى، على مثال ما اتبع فى بناء أسوار بدر الجمالى.

ولم يقتصر الأمر على شيوع استخدام الحجارة، بل إنه عنى بقطعها وصقلها وتنسيقها فى البناء كما يشاهد مثلاً فى مئذنتى الحاكم. ولم يعد يستعان بالطلاء الجصى فى غطاء المسطحات الجدارية وتسويتها. ولهذا اتخذت الواجهات طابعًا جديدًا واتخذت البوابات مظهرًا مستقلاً. وأضافت الزخرفة المنحوتة على الحجارة أهمية إلى واجهات المساجد الفاطمية، فى مسجدى الأقمر والصالح طلائع، فأصبحت الواجهة نفسها عنوانا آخر للوظيفة الدينية التى يؤديها البناء، فإذا تصورنا هذين المسجدين خاليين من مئذنتيهما، فإن واجهة كل منهما تكفى دليلا على كيانهما.

وهكذا أصبحت مادة البناء، وهى الحجارة، عنصرًا قائمًا بذاته، عنصرًا متكاملاً، بعد أن كان الآجر عنصرًا غير متكامل، يفتقر إلى الطلاء والجص لسد النقص فى مظهره.

هذه ناحية هامة ترتبت عن استخدام الحجارة. وثمة ناحية أخرى، ليست أقل أهمية منها، ترتبت عن العناية بصقل الحجارة وتنسيقها، واستغلالها فى الزخرفة، وتلك هى ابتكار الصنج المعشقة، التى تمكن البناة بفضلها من استخدامها فى العقود المنبطحة وفى العتبات الأفقية فى النوافذ والأبواب، عوضًا عن العقود المقوسة والمدببة.

والأصل فى هذا الابتكار المعمارى ضرورة بنائية. إذ إن تعشيق الحجارة يربطها ربطا قويًا، ويزيد من تماسكها، فيغنى عن العقود المقوسة أو المدببة. وكانت الصنج المعشقة معروفة قبل الإسلام فى بلاد عديدة، «من إسبانيا إلى الفرات»[1]. ولكن الأمثلة المتخلفة من هذه المناطق الشاسعة قليلة[2]، بل كان استعمالها حينذاك نادرًا[3]. والمعروف عن هذه الصنج السابقة للعصر الإسلامى أنها كانت تتخذ شكلاً مبسطًا، كما يتضح من عتبة باب فى المسرح الرومانى بمدينة (أورانج) فى فرنسا وهو من القرن الثانى قبل الميلاد. وكذلك الحال فى عقود من مقبرة (تيودوريك) فى (رافنا) بإيطاليا، وهى التى بنيت فى سنة ٥١٩ ميلادية[4]. وكانت هذه الصنج وتلك مبسطة الشكل والتعشيق، وكذلك كانت الصنج المكتشفة فى قصر الحيرة الشرقى الذى أقامه هشام بن عبد الملك فى سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م.

---

(١) انظر صفحة ٢٤٣ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية الأولى»، وصفحة ١٢١ من كتابه «مختصر العمارة الإسلامية الأولى».

(٢) انظر صفحة ٢٤٢ إلى ٢٤٥ من الكتاب الأول المشار إليه فى الحاشية السابقة.

(٣) انظر المرجع السابق، صفحة ٢١١.

(٤) انظر شكل (٦) من «المدخل».

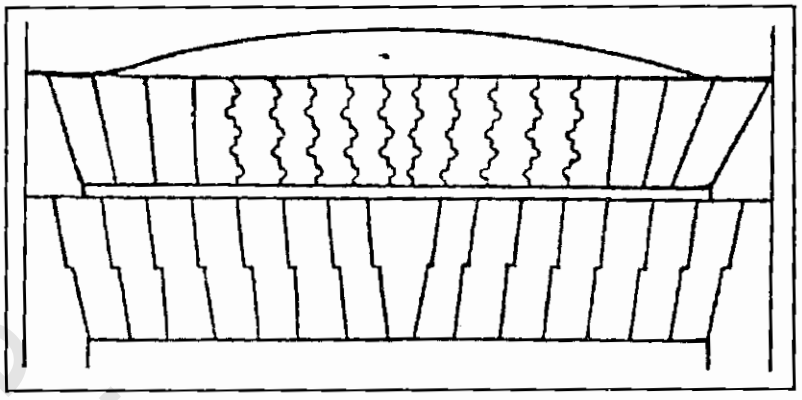

شكل (٢٥) – رسم للصنج المعشقة فى عتبة بوابة النصر بالقاهرة من عصر بدر الجمالى

وعلى هذا النحو المبسط ظهرت الصنج المعشقة فى العمارة الإسلامية بمصر أول ما ظهرت فى بوابات النصر والفتوح وزويلة[1]، شكل (٢٥). غير أن هذه الأشكال تطورت فى بوابة النصر نفسها، فى العتبة الثانية التى تعلو عتبته الأولى، شكل (٢٥) ثم تطورت تطورًا أكبر فى مسجدى الأقمر والصالح طلائع، اللوحات أرقام (٤٣ و ٥٣). واتخذت الصنج فى العتبات الأفقية والمقوسة مظهرًا زخرفيًا، مع احتفاظها بوظيفتها المعمارية، وأصبحت تتكون من شكل أنصاف دوائر متقابلة مرتبطة بخطوط مستقيمة مصغرة، شكل (٢٦).

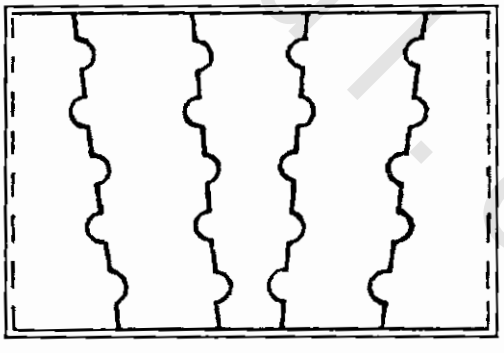

شكل (٢٦) – رسم للصنج المعشقة فى عتبة مسجدى الأقمر والصالح طلائع

(١) انظر المرجع السابق.

وتمتاز مساجد القاهرة الفاطمية بالتطور الذى أدخل على طريقة استخدام الروافع، وهى الأعمدة والدعامات. وقد استخدمت الأعمدة القديمة فى بعض المساجد، كالأزهر والأقمر والصالح طلائع، كما كانت تستخدم فيما قبل، ولكنه أضيفت فوق تيجانها القديمة حدارات. وقد أشرت إلى هذه الحدارات فيما سبق، وأوضحت أنه يعلوها طنفة وتدنوها قرمة. وهذه المجموعة المكونة من ثلاثة عناصر تعتبر ابتكارًا فى العمارة الإسلامية ببلاد المغرب، وتشاهد فى مسجدى القيروان والزيتونة وفى غيرهما من المساجد[1]، ولم تستخدم فى العمارة الإسلامية بمصرقبل ذلك[2]، ولاشك فى أن استخدامها بالقاهرة، وخاصة فى المسجد الأزهر كان اشتقاقًا من العمارة العربية المغربية. وقد قصد بهذا الابتكار معالجة قصر طول الأعمدة واختلاف ارتفاعاتها، وإيجاد قواعد ثابتة على مستوى واحد لأطراف العقود. وقد صنعت الحدارات فى الأزهر من الحجارة، وفى الأقمر، من ألواح خشبية. واقتصر فى مسجد الصالح طلائع على الطنف الخشبية، أو الوسائد، التى نحتت عليها الزخارف، واستغنى عن الحدارات فى هذا المسجد لأن أعمدته كانت طويلة أصلاً، كما أنه وضعت لها قواعد من مكعبات حجرية مرتفعة. ولهذا لم تكن هنالك ضرورة معمارية لتزويد الأعمدة بحدارات، خاصة وأن عقود المسجد كانت مطولة الأطراف. ولكنه احتفظ بالطنف الخشبية فى هذا المسجد تذكارًا للتقاليد المعمارية العربية من جهة، ولاستخدامها فى الزخرفة من جهة أخرى. ولهذا فإن وظيفتها، كما كان الحال فى مسجد عمرو، زخرفية أكثر منها معمارية، لوحة رقم (٦٩).

وبدأت الأعمدة تصنع خصيصًا للمساجد التى تقتصر حاجتها منها إلى عدد ضئيل، مثل مسجد السيدة رقية. وكذلك صنعت تيجان هذه الأعمدة وقواعدها بالقاهرة، وهى على هيئة الناقوس أو الزهرية، لوحة رقم (٤٧ و ٥٠ أ). وفى قبة مسجد الحاكم تيجان ناقوسية صنعت كذلك محليًا.

واستخدمت الدعامات فى مسجد الحاكم عوضًا عن الأعمدة، مثل ما اتبع من قبل فى مسجد ابن طولون. ودعامات «الحاكم» تطور منطقى لهذه الدعامات الطولونية. وهى تمتاز ببروز ضئيل فى كل من واجهاتها الأربع، كان المقصود منه تمهيد قاعدة لكى تستند عليها الآوتار الخشبية التى تربط أطراف العقود. ثم إن الدعامة فى مسجد الحاكم تظهر كأنها مجموعة من أربع دعامات ملتصقة بالتعارض، وكأن كلا منها يحف به عمودان مندمجان فى ركنيهما. وهكذا تتميز دعامات المسجد الحاكمى بأنها واضحة المعالم، مفصّلة العناصر، بحيث

---

(١) انظر للمؤلف صفحتا ٦٨ و ٦٩ من «المسجد الجامع بالقيروان»، وصفحة ٨٢ من «مسجد الزيتونة الجامع».

(٢) استخدمت فى مسجد عمرو وسائد خشبية فوق تيجان الأعمدة، ووظيفتها تسوية مسطحات التيجان تحت أطراف العقود، وهى وظيفة تختلف عن وظيفة الحدارات، انظر «المدخل».

يؤدى كل عنصر منها وظيفة مستقلة. والواقع أن هذه التجزئة شكلية وظاهرية فحسب، لأن دعامة «الحاكم» مثل دعامة «ابن طولون» كتلة واحدة متماسكة. ومع ذلك فإن لهذه التجزئة الظاهرية أهمية، إذ إنها تعتبر خطوة من تطور أساليب العمارة الإسلامية، تطورًا أدى إلى تحديد عنصر قائم بذاته، مظهرًا وتكوينًا، لكل وظيفة معمارية[1].

□□□

(١) أبدى الأستاذ (هوتكور) هذه الملاحظة عند شرحه لعناصر العمارة فى مسجد الحاكم، وذلك فى صفحة ٢٢٢ من الجزء الأول من كتاب «مساجد القاهرة» من تأليفه بالاشتراك مع (فييت). ونص الفقرة المشار إليها هو:

"Les architectes musulmans.. éprouvérent progressivement le besoin de distinguer dans un member portant les différentes fonctions de chaque élément".

obeikandl.com

٢

العقـــود

استخدمت فى عمارة القاهرة فى العصر الفاطمى أنواع عديدة من العقود، منها المقوّس ومنها المدبب ومنها المطول ومنها المنفرج والمنفوخ والمنبطح والأحدب، وقد أشرت إلى مواضع استخدامها فى الفصول السابقة، شكل (٢٧). وتوجت النوافذ فى الأزهر والحاكم بعقود مقوّسة، أى من أنصاف دوائر، واتخذت بعض النوافذ والطاقات فى مساجد الحاكم والأقمر والجيوشى عقودًا مدببة. وفى نوافذ القبة فى السيدة رقية اتخذت العقود شكلاً يجمع بين العقد المنفوخ والعقد المنفرج. وهو عقد استخدام أول ما استخدم فى الزخرفة كما سنرى فيما بعد. واستخدمت كذلك العقود المتتابعة، أو المزدوجة، بصفة عامة فى مسجد الأقمر، وكان استخدامها من قبل مقصورًا على المحاريب. ولعل أكثر العقود شهرة ومظهرًا والتصاقا بالعمارة الفاطمية هى العقود المنفرجة. وقد سميت هذه العقود أحيانا بالعقود الفارسية، وهى تسمية خاطئة كما سنرى.

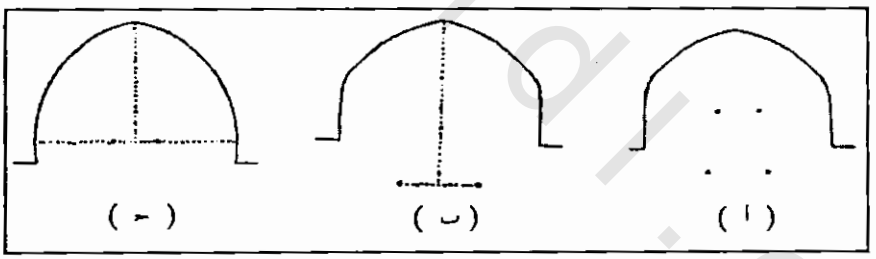

شكل (٢٧) – رسوم إيضاحية لأمثلة من العقود المستخدمة فى العمارة الفاطمية

ويتكون شكل العقد المنفرج هذا من كتفين مستقيمين يجتمعان عند رأسه فى زاوية منفرجة، وله طرفان رأسيان مستقيمان كذلك، يربطهما بالكتفين انحناء مقوّس من كل جانب، شكل (٢٨). وهذا هو الشكل الذى أطلقت عليه اصطلاح «العقد المنفرج»، بدلاً من «العقد الفارسى».

والذى جعل العلماء يطلقون على هذا العقد اصطلاح «العقد الفارسى» هو ظنهم أنه كان معروفا فى العمارة الفارسية قبل استخدام العمارة الإسلامية له بالقاهرة، وأنه كانت تربط هذه العاصمة بالدولة الفارسية روابط قوية أثناء الحكم الفاطمى.

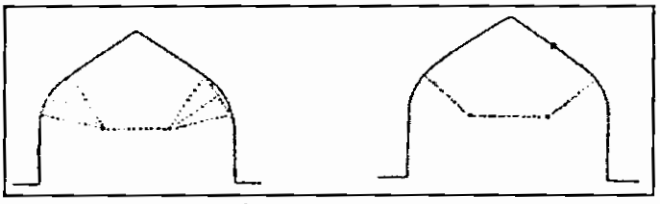

شكل (٢٨) – رسم إيضاحى لشكلين من أشكال العقود المنفرجة

فقد ذكر (فان برشم) أن العقود فى جميع المساجد الفاطمية عقود «فارسية»، وهى عقود تتكون من انحناء ينتهى عند طرفيه بخط مستقيم، وأن هذا العقد لم يظهر فى العمارة الإسلامية بمصر قبل العصر الفاطمى. ويفسر (فان برشم) هذه الظاهرة بانتشار التأثيرات الفارسية فى وادى النيل أثناء حكم الدولة الفاطمية التى كانت العقائد الشيعية والإسماعيلية تربطها بالدولة الفارسية. وينتهى (فان برشم) إلى القول بأن العقود العتيقة فى المسجد الأزهر تتخذ أشكال العقود الفارسية[١].

وذكر (سلادان) رأيًا مماثلاً فقال: «إن عقود مسجد الأزهر التى ترتكز على أعمدة تتخذ شكلا حادًا خاصًا، وكذلك عقود الطاقات القائمة بينه. وهذا الشكل كان منتشرًا فى بلاد الفرس»[٢]. وكذلك أكد (هوتكور) أن عقود الأزهر الفارسية ترجع إلى قوة الرابطة الدينية التى كانت تربط الفاطميين بالفرس، وأضاف إلى ذلك قوله إن هذه العقود الفارسية ترجع إلى أصل هندى[٣]. وأخيرًا وافق (مارسيه) على هذا الرأى وأضاف إلى ذلك أن هذه العقود كانت مجهولة فى مصر من قبل[٤].

قامت هذه النظرية إذا على الظن بأن العقد «المنفرج» كان واسع الانتشار فى فارس قبل العصر الفاطمى. ولكن (كريسويل) أوضح أن أقدم الآثار المعروفة فى بلاد الفرس (بل وفى

---

(١) انظر صفحتا ٤٢٨ و ٤٢٩ من مقال (فان برشم) عن «مذكرات فى الآثار العربية».

Van-Berchem, Max, *Notesd'Archéologie Arabe* Journal Asiatique. 8^{e} série, Tomes XVII, XIX, Paris, 1891.

(٢) صفحة ٩٥ من كتاب «الفن الإسلامى – العمارة»:

Saladin,Henri, *Manuel d'Art Musulman*, L'Architecture, Paris, 1907.

(٣) انظر صفحة ٢١٨ من الجزء الأول من كتابه «مساجد القاهرة».

(٤) انظر صفحة ٢٩ من المقال الذى نشره بعنوان «مساجد القاهرة»:

Marçais, George, Les Mosquées du Caire d'aprés un livre récent, Revue Africainc, Tome LXXIV, 1933.

وانظر كذلك صفحة ٧٧ من كتابه «فن الإسلام»:

L'Art de l'Islam, Larousse. Paris. 1946

أواسط آسيا) والتى تحوى عقودًا «فارسية» هى أحدث عهدًا من الأزهر، وأن الآثار المتخلفة فى تلك البلاد، والتى يرجع تاريخ إنشائها إلى ما قبل تاريخ المسجد الأزهر، لا تحوى أى منها عقودًا من الشكل الذى أطلق عليه لفظ «الفارسى»[(١)]. ومضى (كريسويل) يستعرض أشكال هذه العقود المختلفة عن عقود الأزهر، وذكر أن منها ما يرسم الشكل المنبعج الذى كان معروفًا من قبل فى العصر الساسانى والذى كان يتخذ أحيانا رأسًا مدببة[(٢)]. ومنها العقد المدبب، ذو المركزين، وهو عقد كان معروفًا فى بخارى قبل سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٧م وكذلك كان معروفًا من قبل فى سوريا. ومنها، أخيرًا، العقد ذو المراكز الأربعة، وهو الذى ظهر فى المسجد الجامع بأصفهان، فى أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى)، أى بعد ظهور العقد المنفرج فى المسجد الأزهر بحوالى مائة سنة، وبعد ثلاثة قرون من ظهور عقد شبيه فى الرقة. وانتهى (كريسويل) من بحثه إلى أن شكل العقد «الفارسى» الذى تمتد أطرافه مستقيمة وتتكون أكتافه من زاوية منفرجة لم يظهر فى بلاد فارس نفسها إلا فى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، فى مشهد جلال الدين حسين فى (أوزجند).

* هذا هو الرأى الذى أبداه (كريسويل) وأكد فيه أن الحقائق الأثرية والتاريخية «تهدم تمامًا»[(٣)] ادعاءات (فان برشم) و (سلادان) و (هوتكور) و (مارسيه) ومن اتبعهم من الكتاب، وأنه من «سخافة الرأى» أن يبحث عن أصل العقد الأزهرى فى فارس أو فى الهند[(٤)].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الرأى القائل بأن العقود الفاطمية تتميز بأنها عقود «فارسية»، أى عقود منفرجة، ليس صحيحًا بأكمله، لأن هذه العقود لا تشاهد فى الآثار الفاطمية قبل مسجد الجيوشى، أى قبل سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م[(٥)]، أما العقود المنفرجة التى تشاهد حاليًا فى المسجد الأزهر، فهى إما تنتمى إلى عهد الحافظ لدين الله، أى بعد سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م. وإما أنها جددت وأعيد بناؤها حديثا على هذا الشكل.

---

(١) انظر صفحة ٥٢ من الجزء الأول من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٢) العقد المنبعج بيضاوى الشكل وهو المعروف باللغات الإفرنجية باسم (elliptic).

(٣) انظر صفحة ٥٢ من الجزء الأول من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٤) انظر صفحة ٢٤٢ من الكتاب المشار إليه فى الحاشية السابقة.

(٥) لا يعترف (كريسويل) بأن عقود محراب الجيوشى عقود منفرجة، ويعتبر أن أقدم عقد منفرج هو الذى ظهر فى عمارة القاهرة فى محراب إخوة يوسف الذى شيد فيما بين سنتى ٤٩٨هـ و ٥٢٠هـ / ١١٠٤م — ١١٢٥م صفحة ٥٢ من المرجع السابق. ويعتقد بعض الكتاب أن أقدم مثل معروف للعقد المنفرج فى القاهرة هو العقد الموجود بقبة الشيخ يونس الذى يقال: إنها بنيت فى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٩٤م. انظر صفحة ٢٨ من الجزء الأول من الكتاب الذى أصدرته وزارة الأوقاف وعنوانه «مساجد مصر».

العقود المنفرجة، التى تظهر بوضوح فى مسجد السيدة رقية، هى فى رأيى تطور منطقى وطبيعى للعقود المدببة، كما يتضح من شكل (٢٧) [١]. وهى نوع من الأنواع العديدة التى ابتكرتها العمارة الإسلامية، والتى سبق أن أشرت إليها[٢]. وقد أخذت العقود تتطور منذ بداية العمارة الإسلامية من مقوّس إلى مدبب إلى منفوخ إلى أحدب[٣]. والعقد المنفرج هو تطور مباشر للعقد المدبب المطول معًا. وتلاحظ بداية هذا التطور وبعض حلقاته فى عقود مساجد الجيوشى والأقمر والسيدة رقية والصالح طلائع وبصفة خاصة فى مسجد الأزهر ذاته، فى عقود بلاطة المحراب وعقود مقرنصات قبة البهو وعقود الصحن، اللوحات أرقام (١١ و ١٥ و ١٧ و ٣٥ و ٤٢ و ٥٥). ومتابعة أشكال هذه العقود يؤكد حلقة الانتقال من العقد المدبب المطول، شكل (٢٧ أ)، إلى العقد المنفرج، شكل (٢٨ أ)، ويبين بوضوح الصلة الوثيقة بينهما، حتى إن التفرقة بين مظهريهما قد خفيت على بعض المشتغلين بالآثار[٤].

---

(١) الحقيقة أن العالم الأثرى الإيطالى (ريفويرا) سبق أن اعترف بهذا الابتكار الإسلامى فى كتابه «العمارة الإسلامية» الذى نشر باللغة الإيطالية فى سنة ١٩١٤م وترجم إلى الإنجليزية فى سنة ١٩١٨م.

Rivoira, G.T., *Moslem Arehitecture*. Oxford, 1925.

وقد أشار (بريجز) إلى هذا الرأى ولم يأخذ به تمامًا فى صفحة ٦٩ من كتابه «العمارة المحمدية»:

Briggs, M.S., *Muhammadan Architecture* in Egypt and Palestine, Oxford, 1924.

ويعترف (كريسويل)، لأول مرة، بنظرية التطور فى النظم المعمارية ويقرر فى صفحة ٢٢٤ من الجزء الأول من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر» أن شكل العقد المنفرج يرجع طبيعيًا إلى الرغبة فى توفير العمل وذلك بحذف قطع الآجر الواحده بجانب الأخرى دون الحاجة إلى تسوية أطرافها (لتلائم تقويس العقد).. ويضيف إلى ذلك أنه «لما كان من الممكن متابعة تطور العقود فى آثار القاهرة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر خطوة خطوة وملاحظة التدرج نحو استقامة الجزء العلوى المقوس من العقد (حتى يصبح منفرجًا) فإنه لا جدوى من البحث عن أصول هذا العقد فى مكان آخر». ومع هذا فإن (كريسويل) لا يعترف بنظرية ابتكار هذا العقد فى العمارة الإسلامية بذاتها وكان همه منصبًا فحسب إلى «هدم» آراء غيره من المشتغلين بالآثار الإسلامية، ولهذا فإنه لم يشر فى كتابه على رغم ضخامة حجمه واستيعابه للمراجع والأسانيد إلى رأى العلامة (ريفويرا) الذى أشرت إليه فى مقدمة هذه الحاشية.

(٢) انظر شكل (٥) من «المدخل».

(٣) العقد الأحدب هو العقد المدبب المنفوخ.

(٤) ومن ذلك عقود فى قصر العاشق بالعراق، وهو الذى شيده الخليفة المعتمد العباسى فى سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٨م على الضفة الغربية لنهر الدجلة المواجهة لمدينة المتوكلية شمالى سامراء، وقد كشف عن هذه العقود حديثًا ولم تنشر صور لها بعد، ويبدو مظهرها كأنها عقود منفرجة، غير أنه يتضح من القياس الدقيق أنها عقود مدببة من ذوات أربعة المراكز، شبيهة بعقود الرقة، فهى بهذا تعبر عن آخر حلقة لتطور العقد المدبب إلى العقد المنفرج، وتؤيد نظرية التطور الطبيعى للعقود العربية الإسلامية.

واستمرت العقود العربية فى طريق تطورها، وفى العصر الفاطمى نفسه، حيث انتهت إلى العقد المنبطح[1]، ثم تمكن البناة من أن يستبدلوا أحيانا بعقود الأبواب والنوافذ عتبات أفقية مستقيمة، وذلك، كما أشرت من قبل، بفضل ابتكار الصنج المعشقة واستخدام هذا العقد المنبطح لتخفيف الضغط على هذه العتبات.

□□□

(١) العقد المنبطح هو عقد مقوس غير متكامل، أو هو الجزء الأفقى من العقد المقوس.

obeikandl.com

٣

المحاريب

امتاز التخطيط فى العمارة الفاطمية، كما رأينا فى الفصل السابق، بظاهرة تعدد المحاريب فى بعض مساجد القاهرة ومشاهدها. ويقتصر الحديث فى هذا الفصل على أشكال المحاريب وتطورها فى العصر الفاطمى. وكانت هذه المحاريب تحتفظ فى مسجدى الأزهر والحاكم بالمظهر التقليدى، وهو الذى يتكون من تجويف فى الجدار عبارة عن طاقة صماء، أو حنية، تتوجها نصف قبة ويتصدرها عقد مدبب يرتكز على عمودين وتكسوها زخارف جصية، ويحيط بعقدها إطار من الكتابة الكوفية[١]. وأغلب الظن أن محرابى مسجدى الأقمر والصالح طلائع كانا لا يختلفان كثيرًا عن هذا النظام[٢].

أما فى مسجد الجيوشى فقد تطور شكل المحراب مع احتفاظه بالمظهر التقليدى. ذلك أنه أحيط جداره بإطار كبير مستطيل امتدت عليه الزخارف والكتابات الكوفية، كأنه ستار مزركش مسدل على هذا الجدار فوق المحراب وعلى جانبيه، لوحة رقم (٣٤). واتبع هذا النظام فى مشهد عاتكة وحول المحاريب الثلاثة التى تتصدر جدار القبلة فى مشهد إخوة يوسف، لوحة رقم ٦٤ أ و ب)[٣].

---

(١) يعتبر محراب مسجد الأزهر أقدم محراب قائم فى العمارة الإسلامية بمصر، وذلك لأن محراب المسجد الطولونى قد جدد فى عهد لاجين فى أواخر القرن السابع (الثالث عشر الميلادى). انظر «المدخل»، أما عن أصل المحراب وإدخاله فى عمارة المساجد فتراجع فى الكتاب نفسه. هذا ويمتاز محراب الأزهر عن محراب الحاكم بأنه يحيط به عقدان مزدوجان.

(٢) تجدر الإشارة هنا إلى المحاريب المسطحة التى ألصقت ببعض الدعامات فى المسجد الطولونى فى العصر الفاطمى، ومنها محراب الأفضل، وزير المستنصر بالله، الذى عمل فى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م. وهذه المحاريب عبارة عن لوحات مسطحة مستطيلة صنعت من الجص. وحفر عليها شكل المحراب محاطًا بإطار نقشت عليه الآيات القرآنية والزخارف. وقد نقش على محراب المستنصر تاريخه واسم الخليفة ووزيره الأفضل.

(٣) جميع المحاريب الفاطمية مستقلة فى تكوينها وزخرفتها، كل منها قائم بذاته، سواء كانت منفردة أم متعددة فى البناء الواحد. وذلك فيما عدا المحاريب الثلاثة فى مشهد إخوة يوسف، فإنه يجمعها إطار زخرفى واحد محيط بها.

ثم تطور شكل المحراب مرة أخرى فى المحاريب الخمسة بمسجد السيدة رقية، إذ انكمش الإطار المستطيل، ولكن أنصاف القباب تحولت إلى أشكال محارات شمسية، تنبثق ضلوعها من دوائر وسطى. وتحولت عقود طاقة المحراب المتتابعة إلى مجموعة من العقود المقرنصة، أو الطاقات المسطحة، شكل (١٦). ونلقى مثل هذه المحاريب المحارية فى مشهدى الحصواتى والجعفرى ويحيى الشبيه، لوحة رقم (٦٥).

ولعل هذا الشكل من المحاريب كان معروفًا بمصر منذ بداية العصر الفاطمى، إذ أن محاريب مسجد ديرسانت كاترين تنتهى بأنصاف قباب مضلعة عقودها مقصوصة، تنبثق ضلوعها من وسط القاعدة، وهو شكل يعتبر بداية ملموسة للتطور إلى المحارات الشمسية. وقد أنشئت هذه المحاريب فيما بين سنتى ٤١٩هـ و ٤٣٣هـ / ١٠٢٧م -- ١٠٤١م، أى قبل بناء محاريب السيدة رقية بمائة سنة، وهى مدة كانت كفيلة بتحقيق مثل هذا التطور.

ويبدو لى كذلك أن أنصاف القباب المضلعة التى اتخذت لتتويج المحاريب، والتى كانت مصدرًا لتطور المحارات الشمسية، قد اقتبست نفسها من المقرنصات المقصوصة فى القباب المضلعة، وهذه المقرنصات هى أنصاف قباب كذلك، وكانت منتشرة فى العمارة المغربية، فى القيروان وتونس، قبل منتصف القرن الثالث (التاسع الميلادى)[1]. ومما يؤيد هذا الرأى مراجعة أشكال المحاريب المنحوتة على واجهة مسجد الأقمر ومقارنتها من جهة بمقرنصات القباب المغربية، ومن جهة أخرى بمحاريب المشاهد الفاطمية. وسنرى فى الفصل التالى أنه من اليسير متابعة هذا التطور فى سلسلة هذه المحاريب الفاطمية.

□□□

(١) انظر الأشكال (٣٤ و ٣٦ و ٣٨ و ٣٩) من «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف.

٤

القبوات والقباب والمقرنصات

ظلت السقف الخشبية المسطحة تقام فوق العقود على بيوت الصلاة والمجنبات اتباعًا لتقاليد العصور السابقة. ويشاهد ذلك فى مساجد الأزهر والحاكم والصالح طلائع وفى أسكوب المحراب من مسجد الأقمر، وأغلب الظن أن سقف الأسكوبين الأخرين من هذا المسجد الأخير كانت عند إنشائه خشبية مسطحة.

واستخدمت فى العصر الفاطمى السقف المبنية أو القبوات، وخاصة على الممرات الواقعة فى البوابات فى مساجد الحاكم والجيوشى والأقمر والصالح طلائع، وفوق القاعتين الجانبيتين فى صحن الجيوشى. وهذه السقف المبنية عبارة عن قبوات أسطوانية. والسقف الأسطوانية المبنية ليست بدعة فى العمارة الإسلامية، فهى عبارة عن امتداد للعقود. أى إن القبوة الأسطوانية تتركب من مجموعة متجاورة ملتصقة من العقود المقوّسة التى ترتكز على الجدران بدلاً من ارتكازها على أعمدة أو دعامات. ولهذا اقتصر استعمالها أول الأمر على الممرات، ولم تتيسر إقامتها على مساحات تزيد فتحتها عن فتحة حلق العقد المقوس أو المدبب.

وكانت القبوات الأسطوانية معروفة، مثل العقد المقوس، فى العمارة القديمة، ومنها انتقلت إلى العمارة الإسلامية. ولكن هذه العمارة أدخلت على القبوات أشكالاً جديدة، مثلما أدخلت على العقود. وقد أشرت إلى ذلك من قبل فيما يخص العقود[1]. واستخدمت القبوات الأسطوانية فى العصر الأغلبى فى آثار سوسة بالبلاد التونسية، فى الرباط وفى مسجد بوفتاته وخاصة فى المسجد الجامع، كما استخدمت فى قصر رقاده بجوار القيروان. ولعل أقدم مثل معروف قائم من القبوات الأسطوانية المقوّسة فى عمارة المساجد هى قبوات مسجد سوسة الجامع الذى بنى فى سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م فقد استخدمت فيه القبوات بصفة عامة فى تسقيف بيت الصلاة ومجنبات الصحن. وهو كذلك، مظهرًا أجمل مثل قديم قائم للقبوة الأسطوانية.

وقد رفعت على بيت الصلاة والقاعات فى مسجد الجيوشى سقف أسطوانية متداخلة، أو متعامدة. وكل منها عبارة عن قبوتين مقوّستين متعارضتين، أى إنها تعتبر حشوا للمثلثات

---

(١) انظر برامج القسم الثانى فيما قبل من هذا الفصل وما يليه من المدخل.

الأربعة التى تنتج عن تعامد عقدين قائمين على أركان مربع أو مستطيل. ولعل سقف الجيوشى كانت مقتبسة من سقف بوابات القاهرة وأسوارها التى أقامها بدر الجمالى، وهو الذى أقام مسجد الجيوشى كذلك.

وكانت القبوات المتداخلة معروفة فى سوريا فيما قبل الإسلام، وكان (بتلر) قد أشار إلى اشتقاق قبوات بوابات القاهرة من هذه القبوات السورية[1]. ولكنه ليس من المستبعد أن تكون القبوات الفاطمية مشتقة، مثل عناصر معمارية وزخرفية فاطمية أخرى، من العمارة المغربية. إذ إنه توجد قبوات متداخلة من العصر الأغلبى فى مساجد سوسة وفى أسوار مدينتها، وهى من منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، كما أنها كانت متبعة فى مسجد المهدية الفاطمى فى تونس، وهو الذى أقيم فى سنة ٣٠٣هـ / ٩١٦م، ثم استخدمت بكثرة بعد ذلك فى بلاد المغرب فى العصر الفاطمى والعصور التالية.

وكانت للقباب الفاطمية أهمية كبرى. وقد أشرت من قبل إلى قبة المحراب فى كل من مساجد الأزهر والحاكم والجيوشى والسيدة رقية وإلى قبة البهو فى مسجد الأزهر، وإلى القباب التى كانت تمتطى أركان أسكوبى المحراب فى كل من مسجدى الأزهر والحاكم[2]. وتمتاز القباب المتخلفة من هذه الآثار بأنها أقيمت على مقرنصات معقودة.

والمقرنص المعقود هو نصف قبة يتصدرها عقد مقوس. وكان هذا المقرنص معروفًا فى العمارة القديمة، وكذلك كانت القباب. ولكن هذه وتلك كانت تتخذ مظاهر وعناصر تختلف عن مظاهرها وعناصرها فى العمارة الإسلامية. وقد أوضحت فى بحث آخر تطور أشكال القباب

---

(١) نشر (بتلر) فى صفحة ٣٣ من كتابه عن «العمارة فى سوريا».

Butler, *Architecture in Syria*. Section B. Northern Syria.

ونقل (كريسويل) هذا الرأى فى صفحة ٢١٢ من الجزء الأول من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر»، وعنه أشرت إليه هنا.

(٢) أقيمت على الأسكوبين الثانى والثالث من بيت الصلاة فى مسجد الأقمر وعلى أروقة المجنبات فى هذا المسجد مجموعة من القبوات والقباب وإنى أعتقد أنها جميعا مجددة ولا يعتد بها فى التعريف بالقباب الفاطمية.

وقد اندثرت فى مسجد الأزهر قباب أسكوب المحراب الثلاثة، وكذلك لم يتبق غير أجزاء من قبتى أسكوب المحراب فى مسجد الحاكم.

والمقرنصات من فيروزأباد وسارفيستان فى بلاد الفرس، قبل الإسلام، إلى بلاد المغرب فى العمارة الإسلامية[1].

استفاد البناة العرب من تجارب الأمم السابقة فى بناء القباب والمقرنصات، ولكنهم حوروا عناصرها بما يتفق مع أساليبهم الإنشائية ومزاجهم الفنى، بحيث تضاءلت ذكرى القباب الرومانية والفارسية أمام القباب الإسلامية، وأصبحت هذه عنصرًا من العناصر المميزة للعمارة الإسلامية. وأقدم مثل عربى معروف للمقرنصات المعقودة يظهر فى قبة المحراب بمسجد القيروان التى بنيت سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م. والمقرنص فيها عبارة عن عقد مقوس، أى نصف دائرة، يرتكز على عمودين، وتقوم من ورائه نصف قبة محارية[2]. وقد انتشر استخدام المقرنصات المعقودة بعد ذلك فى البلاد التونسية، أقيمت فى سوسة فى سنتى ٣٠٦هـ / ٨٢١م و ٢٣٦هـ / ٨٥٠م وفى تونس فى سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م وسنة ٣٨١هـ / ٩٩١م، وأقيمت فى مسجد قرطبة سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م. وهى فى كل هذه الآثار تعبر عن فكرة واحدة مبتكرة، أساسها تجزئة الكتلة إلى خطوط هندسية. فقد أصبحت المقرنص، الذى هو أصلاً كتلة كروية من نصف قبة، عبارة عن خط هندسى، هو عقد نصف دائرى، وأصبح ما وراءه حشوًا. وقد تطور المقرنص فى الآثار المغربية حتى اتخذ مظهرًا زخرفيًّا بحتا، مثلما يشاهد فى مقرنصات قبة تلمسان[3].

وأقدم القباب الفاطمية فى القاهرة، وهى قبة مسجد الحاكم، لاحقة تاريخًا لهذه القباب المغربية الأندلسية جميعًا[4]. ولهذا فإنى أعتقد أنها قد انتقلت من هذه القباب إلى القاهرة، وأن مقرنصات

---

(١) انظر صفحات ٩٥ إلى ١١٩ فى كتاب المؤلف «التأثيرات الإسلامية».

L'Art Roman du Puy et les Influences Islamiques.

وكذلك انظر صفحات ٨٧ إلى ١٠٤ من كتاب «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف، وصفحات ٨٣ إلى ٩٢ من مقاله «مسجد الزيتونة الجامع فى تونس». وقد أوضحت فى هذه البحوث طريقة استخدام المقرنصات المعقودة لتحويل المربع إلى مثمن إلى دائرة تمتطيها القبة، وشرحت وسائل انتقالها إلى بلاد المغرب، وحاولت أن أبين الفكرة الإنشائية الجديدة فى تطبيق هذه العمارة الإسلامية. ولهذا أكتفى فى هذا القسم بالإشارة فحسب إلى نتائج هذه البحوث.

(٢) انظر شكل (٣٦)، صفحة ٩٢ من كتاب «المسجد الجامع بالقيروان».

(٣) مقرنصات مشهد الشيخ يونس تبدو زخرفية كذلك، إذ تعلوها نوافذ فى رقبة القبة. ولهذا السبب فإننى أرجح أن يكون تاريخها لاحقًا للتاريخ المنسوبة إليه. وسأستعرض فى الفصل التالى مرحلة اتخاذ المقرنصات عنصرًا من عناصر الزخرفة.

(٤) يفترض (هوتكر) أن مقرنصات (السبع بنات) أقدم مقرنصات ظهرت فى العمارة الإسلامية بمصر، وأنها أقدم من مقرنصات (الحاكم). انظر صفحة ٢٢٦ من كتابه «مساجد القاهرة». وهذا الادعاء غير مقبول لأن تاريخ (السبع بنات) لاحق حتمًا لتاريخ (الحاكم)، انظر صفحة ٣٢ فيما سبق.

مسجدى الحاكم والجيوشى تطور منطقى للمقرنصات التونسية. وإن كان مقرنص قبة بوابة الفتوح يختلف مظهرًا وتكوينًا، فإن ذلك يرجع إلى بنائه من الحجارة، ولكنه على كل حال لا يدل على اشتقاق سورى أو أرمنى. وقد اعترف (كريسويل) بأنه لا يوجد أى مثل شبيه بالمقرنصات القاهرية فى آثار سوريا أو العراق السابقة أو المعاصرة لها[١] وأن المقرنصات المعروفة فى بلاد الفرس «تتخذ أشكالا وعناصر مختلفة تماما عنها فى القاهرة»، وأضاف أنه «هكذا تصفع صفعة أخرى تلك النظرية القائلة بتأثير العمارة الفارسية على العمارة الفاطمية»[٢]. وأخيرًا قرر (كريسويل) «أن تطور المقرنصات الذى حدث فى مصر كان بأسره ابتكارًا محليًا»[٣].

غير أن (كريسويل) لم يشر إلى احتمال اقتباس المقرنصات المعقودة القاهرية من المقرنصات المغربية. وليس أدل على اتصال هذه بتلك من قبة السيدة رقية. فهذه القبة مضلعة، تماما مثل قبتى المحراب فى مسجدى القيروان والزيتونة، لوحة رقم (٦٢). وإذا كانت قبة السيدة رقية تقارن بقبة الشيخ يونس، وتاريخها ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م وبقبتى عاتكة والجعفرى، لوحة رقم (٦١). وتاريخهما حوالى ٥١٥هـ / ١١٢١م وبقبة يحيى الشبيه، لوحة رقم (٥٩ ب) وتاريخها حوالى ٥٤٥هـ / ١١٥٠م. فليس فى هذا ما يمنع من أن هذه القباب جميعًا قد تأثرت مثل كثير من عناصر العمارة الفاطمية بالقاهرة، بالقباب المغربية.

وإنا نلقى فى هذه القباب الخمس حلقة جديدة من تطور المقرنصات فى اتجاه خاص يميز العمارة الإسلامية فى العصر الفاطمى، وامتد تطوره إلى العصور التالية.

كان المقرنص فى مساجد الحاكم والجيوشى والأزهر، وكذلك فى مشاهد السبع بنات وإخوة يوسف والحصواتى، عبارة عن نصف قبة كروية يتصدرها عقد كأنه إطار بارز لها[٤]. أما فى السيدة رقية وفى القباب الأربع المشابهة لها، فقد أصبح المقرنص يتكون من مجموعة من الطاقات والعقود[٥]. وقد نظمت هذه المجموعة فى نظام زخرفى قوامه التكرار والتدرج. ذلك أن المقرنص الذى

---

(١) وذلك فى صفحة ٢٥٣ من الجزء الأول من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٢) انظر الصفحة نفسها من المرجع السابق.

(٣) وهذا نص ما جاء فى الصحفة المشار إليها فى المرجع السابق عن هذا التطور:

"we can say without hesitation that the evolution observed in Egypt was entirely a local creation".

وإنى أسجل بسرور وتقدير هذا الاعتراف.

(٤) وكان العقد فى هذه المقرنصات إما مدببًا أو منفرجًا، كما كان يتكون من عقدين متتابعين فى الجيوشى وإخوة يوسف والسبع بنات. انظر صفحات ٣٢ و ٣٤ و ٣٥ فيما سبق عن تاريخ هذه القباب.

(٥) وكذلك يتكون المقرنص بهذه الصورة فى قبة أحد المشاهد الفاطمية فى أسوان. وفى قبة موفى الدين المواجهة لخانقاه بيبرس الجاشنكير والتى يرجح بناؤها فى القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى). انظر لوحة رقم (١١١) فى الجزء الأول من كتاب (كريسويل) «العمارة الإسلامية فى مصر».

يمتطى ركن المربع أحيط من كل جانب بطاقة صماء تنتهى ببروز على هيئة رأس العقد فى المقرنص الوسيط. وأقيم على رأس هاتين الطاقتين مقرنص ثان شبيه بالمقرنص الأول، يعلوه ويتقدم عليه. واتخذت هذه المجموعة بهذه الصورة شكلا يرسم خطوطا هندسية مستقيمة، وزوايا منفرجة وحادة، ومثلثات. وكذلك تكونت من إطارها صورة ترسم شكلاً هرميًا مدرّجًا.

وأخذت المقرنصات تتطور بعد ذلك فى هذا الاتجاه تطورا لم تقف حدوده فى العصور التالية. وكان لهذا الاختراع البسيط فى مبدئه وفكرته، الفريد فى نوعه، شأن كبير فى تاريخ العمارة، وتولّدت عنه أشكال من المقرنصات لا حصر لها، لا فى القاهرة وحدها فحسب، بل فى العالم العربى والإسلامى جميعًا، كما سنرى، إن شاء الله، فى الأجزاء التالية من هذا الكتاب.

وحدث أول مظهر لهذا التطور فى العصر الفاطمى نفسه، فى مقرنصات قبة أبى الغضنفر، سنة ٥٢٢هـ / ١١٥٧م [(١)]. إذ إن المقرنص ازداد تجزئة. وأصبح يتكون من ثلاثة طوابق، فيها مقرنص وسيط تحيط به خمس طاقات، لوحة رقم (٦٠) بعد أن كان يتكون فى السيدة رقية وزميلاتها من مقرنص تحيط به طاقتان ويعلوه مقرنص ثان.

وهكذا أخذت العناصر المعمارية تتحول تدريجيًا أو على الأصح تتجزأ إلى عناصر زخرفية.

وكذلك القباب كانت كتلا كروية فى الحاكم والأزهر والجيوشى، فأصبحت فى السيدة رقية وشبيهاتها تتجزأ إلى ضلوع، تتكون من خطوط مقوسة تنبع وتتفرع من قمة القبة كأنها هيكل عظمى لجسد القبة يبدو مكسوًا للناظرين من الداخل ومن الخارج على السواء، لوحة رقم (٥٩). ولا يستطيع الباحث أمام هذه الظاهرة، أن ينكر صلة هذه القباب الفاطمية بالقباب المغربية، أو يتجاهل وحدة التعبير والتصميم الهندسى فى العمارة الإسلامية هنا وهناك [(٢)]. وتزداد هذه الصلة قوة من مقارنة قبة القيروان ببعض قباب القاهرة، مثل السيدة رقية والسبع بنات، والجيوشى إلى حد مّا، إذ يتضح من مظهرها الخارجى تحول المربع إلى مثمن الأضلاع من جهة، وتدرج الطوابق من جهة أخرى.

□□□

(١) انظر صفحة ٣٧ فيما سبق عن ترجيحى لبناء هذه القبة فى ذلك التاريخ.

(٢) انظر صفحة ١٠٢ وما يليها وشكل (٤٤) من كتاب «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف.

٥

المآذن والمعاطف

وأخيرًا تمتاز عمارة القاهرة فى العصر الفاطمى بمآذنها، وقد تخلفت منها أربع مآذن، اثنتان فى مسجد الحاكم، ومئذنة فى مسجد الجيوشى وأخرى فى أبى الغضنفر، أما ما عدا ذلك فقد تهدم واندثر[١].

وقد وصفت بنيان مآذن الحاكم والجيوشى فى الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب، وأوضحت أن مئذنتى الحاكم هما أقدم مئذنتين قائمتين فى العمارة الإسلامية بمصر[٢]، كما أوضحت أن تصميم هاتين المئذنتين لم يكن يتضمن بناء المعطفين ولكنهما أضيفا إليهما بعد تمام بنائهما لتدعيمهما خوفًا عليهما من التزعزع والسقوط[٣].

والمآذن معروفة فى العمارة الإسلامية منذ عصورها الأولى، وأقدم المآذن الخالدة فى تلك العمارة هى مئذنة المسجد الجامع بالقيروان، وتاريخها سنة ١٠٥هـ / ٧٢٤م[٤]. وتمتاز هذه المئذنة بقاعدتها المربعة المرتفعة بانحدار وانسياب داخلى، كما تمتاز بتراجع طوابقها العليا وتدرجها عن سمت هذه القاعدة. وإذا كنت قد رجحت منذ سنوات أن هذه المئذنة اقتبست من الأبراج السورية. فإنى أكدت

---

(١) كتب الدكتور سالم (السيد محمود عبد العزيز) رسالة عنوانها «المآذن المصرية – نظرة عامة عن أصولها وتطورها منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى» نشرت بالقاهرة فى سنة ١٩٥٩م، (وزارة الثقافة والإرشاد القومى)، وفى هذه الرسالة عرض مركز عن مآذن القاهرة وأسوان فى العصر الفاطمى، الصفحات ١٧ إلى ٢٣.

(٢) تقلو هاتين المئذنتين تاريخاً مئذنة المسجد المقام فى دير سانت كاترين فى سيناء، ويرجع تاريخها إلى ما بين سنتى ٤١٩هـ و ٤٣٣هـ / ١٠٢٧م – ١٠٤١م). وهى مئذنة مبنية من قطع الحجارة غير المنتظمة، وكسيت مسطحاتها بطبقة من الجص، وهى مربعة القاعدة، وترتقى على هذا الشكل حتى نهايتها الذى تتوجه قبة نصف كروية. ويبلغ طول ضلع مربع المئذنة ٣.٧٥ أمتار وارتفاعها إلى قاعدة القبة ١٥ مترًا تقريبًا ويستمد مظهر هذه المئذنة جماله من استقامة خطوطها وبساطة بدنها.

(٣) كان الأستاذ (هوتكور) قد أبدى رأيًا مماثلا وفسره باحتمال حدوث زلزال فى ذلك التاريخ. ولكنه لم يدرس بناء المعطفين من الداخل ليتأكد من وظيفتهما المعمارية بالنسبة لتدعيم المئذنتين. وذلك بالاستناد بدنتيهما على المعطفين فى المواضع التى تتطلب الارتكاز. انظر كتابه «مساجد القاهرة»، الجزء الأول صفحة ٢٢٣. والرأى الذى أبداه (فييت) عن تاريخ المعطفين والذى يشير إليه (هوتكور) فى تلك الصفحة، يقع فى هذا الكتاب.

(٤) انظر صفحات ١١٠ إلى١١٢ من كتاب «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف.

كذلك وأن ذكرى تلك الأبراج «تتضاءل أمام شهرة مئذنة القيروان وشخصيتها»[1]، «إذ بينما تظهر تلك الأبراج فى هيئة الجمود، وتخلو نسبها من مظهر التوازن؛ فإنا نرى مئذنة القيروان ترتسم فى الفضاء كتلة تجمع بين الانسجام والاتزان»[2]، لوحة رقم (٦٣ أ).

وقد اتخذت مئذنة القيروان أنموذجا للمآذن فى بلاد المغرب والأندلس، وأكثر هذه المآذن صلة وقرابة لمئذنة القيروان هى مئذنة مسجد سفاقص التى تبدو أقل عظمة، ولكنها تتخذ مظهرًا أكثر انسيابًا ورشاقة. وقد أقيمت هذه المئذنة فى سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م، لوحة رقم (٦٣ ب)؛ أى قبيل الشروع فى بناء مئذنتى الحاكم. ولاشك فى أن هاتين المئذنتين، ومئذنة مسجد الجيوشى تنتمى كذلك إلى سلالة مئذنة القيروان. إذ إن وجه الشبه كبير. مظهرًا وبنيانًا، بين مآذن القاهرة الفاطمية ومئذنتى القيروان وسفاقص، وذلك لأن قواعدها جميعًا مربعة، وجدرانها تنحدر، وطوابقها العليا تتدرج وتتراجع. ويقوى وجه الشبه والقرابة إذا قورن معطفا مئذنتى الحاكم بالطابق الأول من مئذنة القيروان. وإن كان مظهر الانحدار والانسياب يزداد وضوحًا فى المعطفين عنه فى مئذنة القيروان فذلك يرجع إلى الأسباب الفنية لوظيفة التدعيم التى يؤديانها، مما دفع البنائين إلى زيادة طول ضلع المربع عند القاعدة[3]، ولكن هذا الانسياب ينبت قطعًا من فكرة واحدة.

وتبعًا لنظرية التطورفقد اختلف بناء المئذنتين ومظهرهما عن بناء مئذنة القيروان. وإذا كنا لا نعرف بالتحقيق مدى ارتفاع المئذنتين عند بنائهما وقبل تشييد الطوابق العليا فى عهد بيبرس الجاشنكير، فإن أغلب الظن أن هذه الطوابق العليا أقيمت عوضًا عن مثيلات لها كانت قائمة وهدمتها الزلازل، وأن ارتفاع المئذنتين كان قريبًا من الارتفاع الكلى الحالى لكل منهما، أى إن قمة المئذنة الشمالية كانت ترقى إلى ارتفاع ٤٦ مترًا تقريبًا، وكانت قمة المئذنة الغربية ترقى إلى ارتفاع ٤١ مترًا تقريباً، وهو ارتفاع يزيد كثيرًا عن ارتفاع قمة مئذنة القيروان الذى لا يتعدى ٣٢ مترًا، بينما يزداد طول ضلع قاعدتها ثلاثة أمتار أو أكثر عن طول ضلع كل من قاعدتى المئذنتين فى مسجد الحاكم. وحدث مثل هذا الانعكاس النسبى فيما يتصل بالطابق الأول المربع، إذ بينما يبلغ ارتفاعه ٢١ مترًا فى القيروان، فهو لا يكاد يبلغ ١٤ مترًا فى المئذنة الغربية ولا يتعدى أربعة أمتار فى المئذنة الشمالية[4].

---

(١) انظر المرجع السابق، صفحة ١١٢.

(٢) انظر شرحه، صفحة ١١١.

(٣) طول ضلع قاعدة القيروان حوالى ١١ مترًا ويبلغ ارتفاع الطابق الأول فيها ٢٠ مترًا فوق الأرضية، ويقل طول ضلع المربع عند هذا المستوى نصف متر عنه عند القاعدة. وأما المعطفان فيبلغ طول ضلع القاعدة ١٦ مترًا بالنسبة للمعطف الشمالى و ١٧ مترًا بالنسبة للمعطف الغربى، ويقل الطول عند النهاية العليا ٤ أمتار بالنسبة للمعطف الأول و ٣ أمتار بالنسبة للثانى. ويبلغ ارتفاع المعطف الشمالى فوق أرضية القاعدة ٢٦ مترًا، والمعطف الغربى ٢٤ مترًا

(٤) هذه المقاسات تقريبية، وتراجع المقاسات الحقيقية فى هذا الكتاب.

ويلاحظ وجه آخر للاختلاف فى مئذنتى الحاكم، ذلك أنهما بنيتا فى أركان مؤخر المسجد وخارج سمت جداره، فى حين بنيت مئذنة القيروان، فى منتصف جدار المؤخر وداخل جداره[1]. ولكن مسجد الحاكم يشبه فى هذه الظاهرة مسجد المهدية فى تونس، كما شابهه، كما رأينا فى بوابته البارزة.

وهذه أوجه خلاف شكلية بين مظاهر المآذن الثلاث القيروانية والحاكمية، ولكن المظاهر الرئيسية التى تميز مئذنتى الحاكم وتعبر عن حقيقة التطور تكمن فى بناء الطوابق العليا التى تعلو الطابق الأول المربع، وهو العنصر المشترك فى المآذن الثلاث. ذلك أن هذه الطوابق أصبحت أسطوانية فى مئذنة الحاكم الشمالية، ومثمنة الأضلاع فى المئذنة الغربية. وهكذا تطور مظهر المئذنة، وبينما ظل يحتفظ فى بلاد المغرب والأندلس بالشكل المربع بالنسبة لقاعدة المئذنة وبدنتها وطوابقها على السواء، أخذ فى عمارة القاهرة يحتفظ فى بدنة المئذنة بالشكل المربع للقاعدة فحسب، ويجمع إليه فى الطوابق العليا الشكل المضلع أو الشكل الأسطوانى، منفردين أو متعاقبين. ومن هنا تبرز أهمية مئذنتى الحاكم، اللتين غايرتا مئذنة القيروان فى مظهرها، ولكنهما احتفظتا فى بنائهما بفكرة الانسياب من جهة وتدرج الطوابق العليا من جهة أخرى، وهى الفكرة التى تعتبر مئذنة القيروان أقدم تعبير قائم لها فى تاريخ العمارة.

ويلاحظ هذا التطور فى مئذنة الجيوشى، إذ بينما احتفظت هذه المئذنة بطابع القواعد المربعة فى طابقيهما الأول والثانى، وبمظهر التدرج فى طوابقها الثلاثة، أخذت عن مئذنة الحاكم الشكل الجديد المضلع، وتحول طابقها الثالث إلى مثمن الأضلاع. واتبع مثل هذا التحول فى مئذنة أبى الغضنفر التى أقيمت قبيل نهاية العصر الفاطمى، فى سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، ثم اتخذت قاعدة اتبعت، كما سنرى فى الجزء التالى، فى مآذن العصر الأيوبى.

ولمئذنة الجيوشى أهمية أخرى كان لها شأن فى العصور التالية كذلك، وهى أنه ظهر بها، ولأول مرة فى تاريخ العمارة الإسلامية، عنصر جديد، هو إفريز مزدوج من المقرنصات يدور حول نهاية الطابق الأول، على هيئة شرفة بارزة من فوقه، أو إطار يفصل بينه وبين الطابق الثانى. غير أن هذا العنصر الجديد كان زخرفيًا أكثر منه معمارياً، إذ إن المقرنصات فيه منكمشة كالخلايا، وهى لا تؤدى على كل حال الوظيفة المعمارية التى وضعت لها، ولهذا نرجئ الحديث عنها إلى الفصل التالى.

---

(١) بنيت مئذنتا الحاكم كذلك خلافًا لما اتبع فى المسجد الطولونى. التى أقيمت مئذنته فى منتصف الزيادة المتصلة بجدار مؤخر المسجد. ولعله مما يؤكد صفة عمارة الحاكم بالعمارة التونسية أن مآذن مساجد سوسة والزيتونة وسفاقس كانت كل منهما مقامة على ركن من أركان مؤخر المسجد، ولكنها كانت داخلة فيه، غير خارجة عن سمت جداره، فيما عدا مئذنة سوسة.